سلطان الخرافة

على البيت المصرى

للأستاذ محمد شوقى أمين

لبثت مصر حينا من الدهر ليس بالقصير ، وهى غارقة فى بحر لجى من الجهالة العمياء ، والضلالة الشنعاء ، فكان أبناؤها يتخبطون فى ملابسات حياتهم تخبط الجاهل الضليل ، ويتلمسون فى تعليل أحوالهم ومعايشهم مختلف الحيل والسبل ، ويعالجون شؤونهم الصحية والاجتماعية بما يظهر لهم من التجارب ، وما بين أيديهم من الأسباب مستخدمين فى ذلك كله عقولا فطرية لم يصقلها العقل المكتسب ، ولم يأته إليها ما وصل اليه جديد الحضارة والعمران .

فلما أخذت مصر تتجاذب أطراف المدنية الحديثة ، وينفذ إليها نور العلم ، والعرفان ، بان لكل ذى نظر أننا نرزح تحت أعباء ثقال من الخرافات الضاربة الأطناب ، والجهالات الناشبة فى النفوس والألباب ، فأخذ الرجال يتحررون منها شيئا بعد شيء ، وينفضون عنهم غبارها طبقة بعد طبقة ، ولما برزت الفتيات من خدورهن وأطللن على عوالم المعرفة تخلصن من الخرافة بقدر ما تهيأت له نفوسهن ، وبقدر ما أعانتهن البيئة ومقتضيات الحياة .

بيد أننا لو وكلنا محاربة الخرافات للعلم وحده لطال الزمن ببقاء سلطان هذه الخرافات فى طول البلاد وعرضها ، فلسنا ندرى متى تزول الامية التى نخوض غمراتها زوالا نطمئن به .

ولسنا ندرى إذا زالت أمية القراءة والكتابة حتى تزول أمية العقل والفكر التى تبقى ما دامت المعرفة سطحية ، والاطلاع محدودا ، والثقافة قاصرة . على أن العلم وحده قلما ينجع فى دفع الخرافة وإلغاء سلطانها على العقول فإن مرور الزمن الأطول بها جعلها تتغلغل فى أعماق الأفئدة ، فهى تستمد القوة والمناعة من تبادل الناس الإيمان بها والتسليم لها . وهذا سر ما نراه فى حياتنا اليومية من أناس رجال ونساء أوتو من العلم حظا ، وبلغت مرتبتهم فى المجتمع مبلغا محمودا ، وهم مع ذلك يرسفون فى أغلال من الخرافات لا يملكون الفكاك منها ، لغلبة العادة عليهم وتحكم البيئة فيهم ، ولأنهم إن ضاقوا بمن يستهزىء بهم فى النادر ، أنسوا إلى من يصدقهم ويؤيدهم فى الكثير الغالب .

وقد لا تسلم أمة من الخرافات مهما تبلغ من ازدهار الحضارة وعموم الرقى ، إلا أن الأمم المتحضرة لا يبقى سائدا فيها من الخرافات إلا قدر يسير أو كثير لا يعود عليها بالضرر الجسيم ، فهى تسقط من خرافاتها ما يقيد عقولها عن الأخذ بالحقائق الصحية والاجتماعية التى تضمن سلامة الأبدان والتمتع بمناعم الحياة ، فإذا بقى للخرافة أثر فى نفوس أهلها فهو الأثر الذى لا يجلب ضرا ولا يمنع نفعا

فأما تلك الخرافات التي تعوق الفكر عن أن يستفيد مما استنبطه العلم الصحيح وهدت إليه الحضارة الحقة، فهذه أعداء الإنسان الاجتماعي التي يجب عليه أن يكافح طغيانها حفظا لكيانه .

وربما كان في طليعة الخرافات ما نؤمن به في شأن الجن، أو بتعبير أشهر "العفاريت" ولست أقصد إنكار هذا الضرب من المخلوقات من ناحية وجوده ، فما أنا لذلك بمعترض، ولا لي بذلك حاجة ، وإنما الذي يجب أن نندد به هو ما يتوهمه بعضنا من أن للجن سبيلا عليه ، وأن جنيا يتصرف فيه ويجري منه مجرى الدماء من العروق ، وأن ذلك الجني يتمثل له في اليقظة أو الحلم .

وأدهى من ذلك في التوهم اعتقاد بعض منا أن هؤلاء الجن يعقدون معاهدات تجارية مع بني آدم فإذا بأولئك الآدميين يستطيعون أن يقولوا للجني كن بردا وسلاما فيكون ، قادرون على أن يتعرفوا المطمع الذي يرمي إليه الجني من الإنسان حين يتلبس بجسده، وقد يكون ذلك المطمع جديا أسود أو ديكا أحمر أو حمامة ورقاء ، ومن العجب أن مطالب هؤلاء الجن ليست إلا مغانم مادية يلتهما أولئك الآدميون ، وأعجب من ذلك قبول الجن تلك الضرائب فدية لانصرافهم عن جسد الإنسان وامتناعهم عن إيذائه.

ولو قلبنا النظر في هؤلاء الذين يدعون الاتصال بالجن لرأيناهم من المرتزقة المتكسبين بهذه الحيلة والوسيلة ، أو الذين أصبح لهم بممارسة ذلك الدجل ثراء عريض ، فإذا حاولنا أن نتبين لهم مزايا خاصة تتيح لهم قدرة المخالطة للجن كما نتصورهم لم نجد لهؤلاء الدجالين مزية تذكر .

وكلنا يعلم ما تلاقيه المرأة المصرية من حرج وضيق بسبب هذه الخرافة الطائشة، فالمرأة إذا اقتنعت أو أقنعت بأن ما ينتابها من أعراض المرض أثر لتلبس الجن بها لم تأل جهدا في الانقياد لما يمليه عليها هؤلاء الدجاجلة ، فتراها تكف بتاتا عن التفكير في الطب والأطباء وتبذل وسعها في تحقيق ما يطلبه الجني على لسان حليفه الآدمي . وربما اضطرت إلى أن تتصرف بالبيع أو الرهن في حليها أو أثاث بيتها راضية طيعة . على حين أنها قد تضن بالفضل من مالها على طبيب يشخص الداء ويصف الدواء .

وتتصل بهذه الخرافة الضارة خرافة أدعى إلى الدهشة ، فإن بعضا منا يسهل عليه اعتقاد أن أناسا ينكشف لهم الغيب الذي تفرد الله بعلمه ، وتبلغ الجرأة بهؤلاء الأناس أن ينظروا في فنجانة قهوة أو يلمسوا منديلا أو صرقة ثوب ، ثم ينطلقوا بعد ذلك متحدثين عما يخفيه الغد لشارب الفنجانة ، وما يخبؤه القدر لصاحب صرقة الثوب أو المنديل، وهم لا يتورعون عن الخوض في حديث المستقبل المجهول في سهولة ويسر كأنهم يتلون من كتاب حفظوه عن ظهر قلب مع أن هذا المستقبل المجهول تتكون أحداثه تبعا للأحوال الطارئة ، والملابسات

الشاكة ، فهو غيب والله لا يظهر على غيبه أحدا . فكيف لهؤلاء الدجاجلة أن يجاهروا بالغيب المستور لقاء دريهمات قلائل ، ولو كانوا يدركون من الغيب شيئا لضاق بهم فضاء الأرض زهوا وافتخارا ، وكانوا أغنى الناس مالا ونشبا !

ولقد جنت الخرافة على بعض المعانى النبيلة الكريمة فجعلتها ضربا من العبث ، وآية ذلك أن زيارة أضرحة الأولياء والصالحين من ذوى قرابة الرسول صلوات الله عليه ، أو صحابته وتابعيه عليهم رضوان الله معنى نبيل كريم يحسن بنا أن نشيد به ونحث عليه ، فإن هذه الزيارات إذكاء للعقيدة وتقوية لروح الدين ، واستمالة للنفوس كى تتطهر من أدرانها ونزواتها ، وفى الزيارات فوق ذلك كله تكريم للأمثلة الصالحة التى ضربها للناس أولئك الأولياء الصالحون بما قدموا من خير وما عملوا من بر ، ومما يؤسف له أن الخرافة تغلغلت إلى تلك المعانى النبيلة فشوهت جمالها ، وأرخصت جلالها ، إذ أصبحنا نرى سيداتنا يقصدن إلى زيارة ضريح بعينه لأن صاحبه مختص بشفاء الأطفال من مختلف العلل والأسقام ، ويعمدن إلى ضريح آخر لأن صاحبته مختصة بإبراء العيون مما يعروها من صديد ورمد . ومن كانت من سيداتنا عاقرا أو تأخر حملها حثت خطاها إلى ضريح فى بطن الجبل لتتمرغ على أرض الضريح فسرعان ما تزول عوائق الحمل . ولا مرية أن هذه كلها ألوان من الخرافات لا يستسيغها عقل ولا يقرها دين ... ... وكيف يعتقد عاقل متدين أن التمسح بسياج الضريح أو التعلق بأستاره أو التمرغ على أعتابه يخفض حرارة محموم ، أو يشفى عينا رمداء ، أو يدفع النهايا فى الرئة أو الكبد ، أو يزيل عائقا من عوائق الحمل ؟ وما شأن هذه الظواهر الجسمانية بزيارة الأضرحة التى يراد بها التماس البركة وتعزيز النفس وتقوية الروح المعنوية ؟

ومن أكثر الخرافات شيوعا وأسرعها تصديقا ما نتصور به تأثير الحسد ، وما أنا بصدد إنكار أن العين حق ، ولكن اعتقاد الحسد شىء وتصورنا لأثر الحاسد فى المحسود شىء آخر فإن السيدة المصرية إذا شكا وليدها مثلا أسرعت ذاكرتها إلى أقرب من زارها من صويحبات أو جارات فجعلت تؤول ما قالته إحداهن لها تأويلا يدلها على أن الزائرة حسدت ذلك الوليد ، فأصيب بما أصيب به . وهنا يستأثر الحنان بقلب الأم الرءوم ، فما هى إلا أن تؤجج الموقد ، وتذر فيه العود والمصطكا ونحوهما ، وسرعان ما تنعقد سحائب البخور فى مخدع الطفل المريض ، وتعد الأم ورقة مقصوصة على هيئة عروس ، ثم تثقبها ثقوبا بعدد من لها من صواحب وجيران . بل لقد تعد الأهل فيمن تعد ، بل لقد تثقب ثقبا أو ثقبين لنفسها ولزوجها أيضا . ثم تضرم النار فى الورقة وهى تنظر إليها نظرة الطمأنينة والارتياح إلى أنها ألقت بالحسد وبالمرض فى اللهيب . وبعد قليل أو كثير تنجلى الحقيقة إن كان حظ الأم سعيدا ، فتعلم أن الطفل مصاب بمرض من الأمراض المعروفة بأسبابها الطبيعية وأعراضها الثابتة ... ... وإنى لأفضل ألا أجادل الأمهات المصريات فيما يؤمن به من عواقب الحسد وآثاره ، فلتعتقد الأم كما تشاء أن الحسد قادر على أن يصيب الطفل بالأمراض

المعروفة فى عالم الطب ، ولكنى أرجو أن تعتقد إلى جانب ذلك أن علاج الحسد لا يكون بثقب الأوراق المقصصة على هيئة الأعراس ،ولا بإطلاق البخور كاشا ما كانو إنما يكون العلاج بإسلام الطفل العليل الذى نسميه المحسود إلى يد الطبيب ، وليقل أطباؤنا أنهم يعالجون الأمراض الجسدية والأمراض الحسدية أيضا وليسوا هم فى هذا الوصف بكاذبين ولا مدعين ... ...

و إن اتخاذ البخور علاجا لأدواء الحسد ليذكرنا بحانوت العطار ، وهو معسكر عظيم للخرافة السارية فى البيت المصرى . فإن كثيرا منا ما يزالون يرجعون فيما يتداوون به إلى هذا الحانوت .

والواقع المشاهد أننا نرهف آذاننا للوصفات البلدية أيما إرهاف ،ونقبل عليها أيما إقبال ونبذل لهامن ثقتنا أكثر ما نبذل لنصح الطبيب وإرشاده وما يصف من الدواء ،والقليل منا من استيقن أن صيدلية العطار لم تعد صالحة لمداواة أهل القرن العشرين . ومما يحدث بيننا أن الطبيب قد ينصرف من عيادة احدى سيداتنا وقد كتب العلاج بعد تشخيص العلة فتدخل الى تلك السيدة زائرة حبيبة يتهلل وجهها بشرا ، فتقص عليها نبأ صاحبة لها كانت تشكو هذه العله نفسها ، وكانت تجد من أعراض العلة ماتجد لك ، وأنها تقلبت بين يدى الأطباء دهرا فما أجدى علاجهم فتيلا ، ثم تناولت المسحوق الفلانى مذابا أومخلوطا بالحبة الفلانية فأبلت أتم إبلال ، بعد ثلاث ليال . فحين تسمع السيدة المريضة ذلك تزهد علاج الطبيب ، وتستريب به ، وتنفذ ما وصفته حبيبتها الزائرة فتبتاعه على الفور من صيدلية العطار . . . .

ولست أزعم أن الحبوب والأعشاب خلاء من الفائدة ، فهى أصول الدواء ولكنى أنكر على غير المختصين أن يكون لهم حق استعمالها ووصفها للمرضى . ولنفرض أن حانوت العطار والصيدلية الرسمية مستويان فى القيمة والفائدة ، فمن الذى أباح لنا أن نستخدم العقاقير من هذه الحوانيت أو من تلك الصيدليات كما نتخيل أو نتوهم ؟ لم يبح ذلك أحد ، ولكن بعض الرجال والنساء يبيحون لأنفسهم أن يكونوا أطباء صيادلة فى آن ، وأن يحسبوا شفاء الأمراض جميعا فى تعاطى قدر من الحلب أو الخولنجان .

لعلى أطلت وأمللت ، فليس الحديث الذى نصارح فيه بأدوائنا الاجتماعية بالحديث الذى تهش له الأسماع ، وتهوى النفوس ، ولكن الواجب يقتضينا أن نواجه أعيننا بما نحن فيه ، وأن نجاهد أنفسنا لتلافيه . ولأن نصبر على ألم العلاج ساعة خير من أن نعانى الداء سنين !